لكي يصبح المايسترو قادرا ليس فقط على اسداء النصح والنقاش والاقناع .. بل ايضا على القيادة الفعلية للاوركسترا ، يتحتم عليه ان يعرف من الذي يعزف على الكمان وعلى كل آلة موسيقية اخرى .. أين وكيف يؤدي المعزوفة ، أين تم تدريب العازف على استعمال آلته الموسيقية ومن يسبب النشاز في الاداء يتوجب تعيين موقعه ومعرفة سبب وقوعه في هذا النشاز ، ومن يجب ان ينقل من مكانه وكيف .. وذلك بغية التخلص من النغمة الشاذة .

لينين

لينين في ثياب الاشتراكي الديمقراطي

٢٢ نيسان ١٨٧٠

اضواء جديدة على شخصية لينين في عيد ميلاده

يكره الغرور والتعصّب وخاصة .. في مجال الثقافة

ترجمة واعداد : غسّان ويوسف عبد العزيز

من قبيل الادعاء ان نحاول هنا اعطاء صورة شاملة عن اعمال لينين في مقال واحد قصير ،

وربما يكون من الافضل ان نركز عوضا عن ذلك على بعض الابعاد غير المعروفة للكثيرين والتي تمتاز في كونها توضح افق لينين وعبقريته ،

وعندما نكتب عن لينين هذه الايام نستفيد من حقيقة اننا شاهدنا بأم اعيننا النتائج الحقيقية والعملية لاعماله سواء في النظرية الثورية او الممارسة ، واذا اردنا ان نضع انفسنا في مكان معاصري لينين ورفاقه في السلاح فربما لن نرى لينين اكثر من عملاق بشري ،

لقد كتب احد اصدقاء لينين ومعاصريه اناتولي مازليفيتش لونا تشارسكي ، أول مفوض للثقافة في عهد الثورة البلشفية مجموعة مقالات بعنوان REVOLUTIONARY SILHOUETTES تناول فيه باختصار شخصيات عدد من قادة البلاشفة بأسلوبه الدافىء ، لكن المتحيز ، مصورا مواطن قوتهم وضعفهم على حد سواء ، ولقد تحدث عن لينين فقال :

« سوف لن أحاول هنا كتابة سيرة اخرى عن حياة لينين ... سوف اتعرض لما اعرفه عنه فقط من خلال علاقاتنا الشخصية وانطباعاتي الخاصة» .

ومن المفارقات التي يجدر تسجيلها ان اللقاءات الاولى بين الرجلين في باريس وجنيف لم تترك لونا تشارسكي بذكريات سعيدة ، اذ كان رومانسيا اكثر من اللازم ومنغمسا في التنظير عن « فضائل علم الجماليات » بينما كان لينين على النقيض من ذلك غارقا في بحر السياسة التي كانت بالنسبة له اقرب الى ارض الواقع من « الجماليات » ، وعليه فان لوناتشارسكي لم يصبح بلشفيا لاقتناعه بما يقول لينين بل على الاغلب لشعوره بأن المناشفة كانوا على خطأ » .

وقد اشار لونا تشارسكي في مذكراته الى هذا الموضوع بمنتهى الصراحة حين قال :

« لقد كان هنالك بالطبع اختلاف كبير في شخصية كل واحد منا عن الاخر ، لقد عالج لينين كافة القضايا كسياسي ذا جرأة متناهية كقائد سياسي وصاحب تكتيك بارع وعبقري ، بينما كنت اتصرف مثل استاذ جامعي او على الاصح كشاعر الثورة ، لقد كانت الثورة بالنسبة لي مسرحا مأساويا ، وفي خضم تنمية الروح العالمية لدى الجنس البشري باسره كانت عملية « البحث عن اله » اعظم الادوار واكثرها حسما وروعة ودقة عبر عنها الفيلسوف الالماني نيتشه بقوله : « لا توجد معقولية في هذا العالم وواجبنا نحن ان نجعل العالم معقولا » .

لقد تأثر لوناتشارسكي الى حد كبير بالانماط السائدة انذاك من الفلسفة الجمالية ، ولقد جذبته بشكل خاص فلسفة النقد التجريبي والتي صدف ان كان منظرها استاذه في جامعة زيوريخ البروفيسور افيناروس ، ويمكن معادلة هذه الفلسفة بالجانب اليساري من الحركة الوجودية ، وقد اوضح لوناتشارسكي ان عملية « البحث عن اله » لا تعني البحث عن قوة او فكرة خارقة للطبيعة ما وراء الطبيعة ، ولقد خلت ديانته من الايمان او التصوف ، واعتبر باليخانوف هذه الاراء بانها نوع من الهرطقة ، ومما يجدر ذكره ان لينين ابدى احترامه لهذا الحكم الذي اصدره باليخانوف ، على اي حال لم يحدث ابدا ان اثار لينين شجارا سياسيا حول مسألة فلسفية مع لوناتشارسكي بل على العكس فقد دعاه لينين الى الانضمام الى هيئة محرري صحيفتي « الى الامام » و « البروليتاري » .

مفوض « منحرف »

في عام ١٩٠٨ برزت الى الملأ الخلافات بين لينين ولوناتشارسكي ، اذ كان المناشفة انذاك يستغلون لاغراض دعائية حقيقة ان غالبية الفلاسفة المنحرفين عن الماركسية هم في الاصل « بلاشفة » (مثل لوناتشارسكي وبوجدانوف) ، وبالرغم من شطحاته الفلسفية فقد شفعت له فطنته السياسية عند لينين الذي كان تواقا لحماية وحدة الحزب ، ومع ذلك فقد هاجمت زمرة بوجدانوف ـ لوناتشارسكي .. لينين علانية واتهمته بأنه « انتهازي » وذلك لرفضه ان يدين الاعضاء الاشتراكيين في مجلس الدوما (المجلس التشريعي في عهد القياصرة) الذين كانوا موضع نقد لجبنهم السياسي ولمسايرتهم للجو الرجعي الذي ساد بعد فشل ثورة ١٩٠٥ ، وقد اعتبر لينين انتقاد الاعضاء الاشتراكيين بهذا الشكل مغالاة وتطرفا يساريا ، وقد عزى لينين هذه المغالاة السياسية نحو اليسار الى « انحراف » بوجدانوف ـ لوناتشارسكي الفلسفي ، وفي كتابه « المادية والنقد التجريبي » وجه اليهما لينين نقدا قاسيا،

وقد ترك لوناتشارسكي البلاشفة ولم يعد اليهم الا عام ١٩١٧ ، وكان في أيام حكومة كيرنسكي (المؤقتة) مناضلا كفوءا وخطيبا مفوها ، ولكن كانت تنقصه القدرة على التركيز في الافكار وقوة الارادة ، وليس غريبا والحالة هذه ان يتناول باهتمام في معرض حديثه عن لينين قوة التركيز الهائلة التي كان يتمتع بها لينين ، وتنقصه هو ، مبديا اعجابه الشديد ،

وبعد انتصار البلاشفة اختارلينين لوناتشارسكي دون تردد ليصبح عضوا في الحكومة الثورية الجديدة ، لقد عينه لينين مفوضا لشؤون التعليم، وبذا يكون لينين قد برهن على فهمه الدقيق للرجل ، وفيما يختص بالثقافة ، فقد كان لينين مولعا بترديد « لا يوجد شيء أكثر ضررا من الكراهية والعجرفة والتعصب » ، وفي هذه الاحوال يجب اظهار اكبر قدر من التسامح » ، فلا غرو اذن ان يكون لينين قد فضل « المنحرف » والحساس لوناتشارسكي على كثير من البلاشفة الاكثر تطرفا لاشغال هذا المنصب ، اذ كان يتحتم انذاك تنمية التراث الثقافي وتثقيف الجماهير وغرس الروح الاشتراكية في التعليم ، ان اختيار لينين الموفق للمفوض لوناتشارسكي هو نفس طريقة الاختيار من جانب قائد فرقة موسيقية بارع يدرك مواطن القوة والضعف في كل عازف لديه في الاوركسترا ويقوم بتوزيع الادوات الموسيقية بدقة متناهية محسنا الاختيار ، ولم تجر بطبيعة الحال اثارة اي مطلب بضرورة تراجع لوناتشارسكي عن أي من هرطقاته الفلسفية او اعتذاره بسبب شطحاته السياسية ، ان شيئا من هذا القبيل لم يكن حتى في الحسبان في عهد لينين ،

بصمات قوية لا تمحى

وكما اشرنا سابقا فان لينين لم يخلف اثرا طيبا لدى لوناتشارسكي عندما تقابلا لاول مرة ، ولكن بعد ان استمع لوناتشارسكي الى محاضرة القاها لينين في باريس (١٩٠٤) عن مستقبل الفلاحين الروس كتب يقول : « في هذه المحاضرة سمعت لاول مرة لينين خطيبا ، لقد تغيرت صورته تماما ، لقد بهرتني الطاقة الهائلة التي تحدث بها ، وتلك العيون النافذة التي كانت تدكن قليلا عندما كان يصوبها كالمقاب نحو الجمهور ، وحركاته الرتيبة لكن القوية وذلك الالقاء السلس المشبع بقوة الارادة ، لقد ادركت انه بات مقدرا لهذا الرجل المدافع عن حقوق الشعب ان يترك من ورائه بصمات قوية لا سبيل الى محوها) ، ولقد كان واضحا لي انه رغم كون لينين خطيبا موهوبا ومفكراعظيما وشعبيا الان الصفةالتيكانت تميزه وغالبة عليه هي الارادة : انها ارادة ثابتة وقوية للغاية وقادرة على تركيز ذاتها للمهمة الاكثر الحاحا والتي لم تبتعد قط عن محور ذكائه الهائل الذي يصنف كل مشكلة على حدة ويضعها في مكانها الصحيح لتصبح مثل حلقة في سلسلة ضخمة تضم كافة مشكلات العالم السياسية ،

وكلما تعرف لوناتشارسكي اكثر على لينين كلما ازداد تقديرا واعجابا بحيويته ، ويقول في هذا المجال :

« كانت حياته دائما تغلي وتتقد ، وعند كتابتي هذه السطور (١٩٤٠) كان لينين في الخمسين من عمره ومع ذلك فما زال يبدو شابا ، وكان الشباب هو النغمة التي تلف كل حياته ، لقد كان يضحك ببسر وسهولة مثل الاطفال بكل سحرهم ، الضحك الذي هو بمثابة علامة انتصار الرجل على الصعاب ! » ، ان حب الحياة هذا من جانب لينين كان يشكل جانبا من عمله ، « من كل كتاب ومن كل صفحة يقرؤها كان يخرج بشيء جديد ويختزن في ذاكرته بعض الافكار الهامة التي يبرزها فيما بعد كسلاح ، ولم تكن تثيره عادة الافكسسار الشبيهة بارائه بل المخالفة لها ، فقد كان لينين على الدوام المناظر العنيف المتقد » ، ويكتب لوناتشارسكي عندما كان يساعد في التحرير : « لقد كان يحلو العمل مع لينين المحرر ، لقد كان يكتب كثيرا وبيسر ... وكان ينظر برعاية الى انتاج رفاقه الادبي : كان دائما يصححهم ويسدي لهم النصح وكان يغتبط أيما اغتباط عندما يقرأ مقالة موهوبة ومقنعة » .

أما كتاباته الناقدة لاعدائه فكانت خالية من اي تعابير تطفح بالمرارة ، « ومع ذلك فقد كان خصما سياسيا صلبا ، يستغل اي خطأ فاضح يقع فيه خصمه ويضخم اي قدر ضئيل من الانتهازية ...» ، وبعد الهزيمة التي منيت بها ثورة ١٩٠٥ بدا لوناتشارسكي دراسة عن كروميل ودانتون في محاولة لتحليل نفسية القادة الثوريين ، وقارن لينين بهما على امل ان يقرر ما اذا كان لينين في نفس المنزلة الرفيعة للقائد الثوري ، ويضيف لوناتشارسكي « لقد بدأت اشعر في زمن الهزيمة بأن حياة لينين كمهاجر قللت بعض الشيء من منزلته هذه والصراع داخل الحزب مع المناشفة قد غطى بعض الشيء على الصراع الاعظم ضد الملكية ، ولذا كان اقرب الى هيئة الصحفي من القائد الحقيقي » .

ان هذا الرأي المبني على نظرة استسلامية ومتشائمة تغير عندما اصبح واضحا ان لينين هو القائد الذي لم تكن مهمته تفسير العالم فحسب بل تغييره ايضا » ، (ماركس) ، ان مقولة لينين الشهيرة « التحليل المحدد للواقع المحدد » لم يكن المقصود منها مغايرة النظرية « البحتة » ولكن على العكس انها تمثل ذروة النظرية « الحقيقة » والنقطة التي تبدأ عندها الممارسة ـ الممارسة التي تحدد بدورها توقيت الثورة ،

وهكذا يكتب لوناتشارسكي ثانية ويقول : «لقد ثبت بما لا يقبل الشك ان لينين على جانب عظيم من نفاذ البصيرة السياسي ، لقد كانت عنده المقدرة على ان يرتقي بالفرضية الى مستوى عبقري ، واعني ذلك النوع من الفرضية التي تنقض على اللحظة المناسبة في الوقت المناسب وتعرف كيف تستغلها لتحقيق اهداف الثورة الثابتة » .

وبذا يكون لينين قد استعاد منزلته كقائد ثوري ، لقد كان منظرا عظيما ولربما يعتبر ندا لماركس في هذا المضمار ، ولكنه انهمك في الصراع من أجل تحرير البروليتاريا محولا بذلك النظرية الماركسية الى قوة مادية هائلة وعملية ،